

تهديد

سمعت اسم الرافي لأول مرة منذ بضع عشرة سنة ، وكنت يومئذ غلاماً حدثاً لا يكاد يفهم ما يلقي إليه ؛ فسمعت اسماً له جرس ورنين ، وله نشيد تتجاوب أصداؤه في جوانب نفسي ؛ فحبب إلى من ذلك اليوم أن ألقاه
ورأيت لأول مرة بعد ذلك بأشهر ، فرأيت رجلاً كبعض من أعرف من الناس ؛ وكان جالساً وقتئذ في قهوة على الطريق وبين يديه صحف يقرأها ؛ فوقفت هنيهة أنظر إليه ، لا أكاد أصدق أن هذا الشخص المائل أمامي هو الشخص الذي أعرفه في نفسي

وقرأت له أول ما قرأت ، نشيده المشهور « إسلامي يا مصر . . . » ، ثم دفع إلى صديق من أصدقائي كتاب « رسائل الأحران » .

كنت يومئذ في بكرة الشباب ، في تلك السن التي تدفع الفتى إلى الحياة بعينين مغمضتين وفكر حالم ورأس يزدهم بالأمانى وقلب مملوء بالثقة ؛ ثم لا يكاد يفتح عينيه على حقائق هذا الوجود حتى يعرف أن أمانيه ليست في دنيا الناس ، ويمجد الفرق بين عالم قلبه وعالم حسه ، وتسخر منه الدنيا سخريتها الأليمة ؛ فيلجأ إلى وحدته الصامتة مطوياً على آلامه !

واستهواني عنوان الكتاب الذي دفعه إلى صاحبي ، فتناولته أقلب صفحاته لا أكاد أفهم جملة إلى جملة ، حتى انتهيت إلى قصيدته « حيلة مرآتها » (١) ؛ فإذا شعر عذب يخالط النفس وينفذ في رفق إلى القلب ؛ فأخذت أعيدها مرة ومرة ، فلم أدع الكتاب حتى استظهرت القصيدة . وحبب إلى هذا الشعر الساحر

أن أعود إلى الكتاب فأقرأه على مهل وروية ، لعلنى أستدرك ما فاتنى من معانيه ،
وأدخر لى نفسى قوة من سحر بيانه وصدق عاطفته . وعدت إليه أقرؤه قراءة الشعر :
أفهمه بفكرى ووجدانى ، وأنظر فيه بعينى وقلبى ؛ فإذا الكتاب يكشف لى عن
معناه . . .

وأحببت الرافعى من يومئذ ، فرحت أتبع آثاره فى الصحف وفى الكتب ،
لا يكاد يفوتنى منها شئ ؛ وعرفته ، ولم أزل كل يوم أزداد عرفاناً به ، ولكنى
لم أعرفه العرفان الحق إلا بعد ذلك بعشر سنين . . .

كان ذلك فى خريف سنة ١٩٣٢ ، وقد قصدت إليه فى داره مع وفد ثلاثة
نسأله الرأى والمعونة فى شأن من شئون الأدب ؛ فلقيننا مرحباً مبتسماً وقادنا
إلى مكتبه ، ثم جلس وجلسنا ؛ وفى تلك الغرفة التى تنزل فيها عليه الحكمة ويلقى
الوحى ، جلسنا إليه ساعة يجاذبنا ونجاذبه الحديث لا تكاد نشعر أن الزمن يمر . . .
كان جالساً خلف مكتب تكاد الكتب فوقه تحجبه عن عيني محدثه ، وعن
يمينه وشماله مناصد قد ازدحت عليها الكتب فى غير ترتيب ولا نظام ، تطل من بين
صفحاتها قصاصات تنبئك أن قارئها لم يفرغ منها بعد ، أو أن له عند بعض
موضوعاتها وقفات سيعود إليها ؛ وعلى حيطان الغرفة أصونة الكتب المتراسة
لا يبدو من خلفها لون الجدار . . .

ومضى يتحدث إلينا حديث المعلم ، وحديث الأب ، وحديث الصديق ؛
فما شئت من حكمة ، وما أكبرت من عطف ، وما استعذبت من فكاهة . وطال
بنا المجلس حتى خشينا أن نكون قد أثقلنا عليه فهمنا بالانصراف ، فإذا هو يطلب
إلينا البقاء ، ويرجونا ألا نغيب مجلسه ؛ وعرفت الرافعى عرفاناً تاماً من يومئذ فلزمته ،
وعرفنى هو أيضاً فأصفانى عطفه ومودته .

وجلست إليه فى الزورة الثانية وبين يديه صحف ، فدفع إلى صحيفة منها كان
منشوراً فيها يومئذ قصيدة للأستاذ خليل مطران بك ، فطلب إلى رأى فى القصيدة ؛
ولم أتنبه ساعتئذ إلى غرضه ، وحسبته يقصد إلى أن يشاركى فى لذة عقلية وجدها

فى هذا الشعر ؛ فتناولت الصحيفة وقرأت القصيدة ، ثم دفعتمها إليه وقد أشرت بالقلم إلى عيون أبياتها ؛ وتناول الصحيفة منى ليرى اختيارى ورأى ؛ فما عرفت إلا وقتئذ أنه كان يختبرنى ، ولكنى — والحمد لله — نجحت فى الامتحان قدراً من النجاح !

وتكرر هذا الاختبار وهو لا يحسبنى أدرك ما يعنى ؛ على أن إدراكى هذا قد جعلنى من بعد أكثر تدقيقاً فى اختيار الحسن مما أقرأ . وأولانى ثقته على الأيام ، فكان على أن أقرأ أكثر ما يهدى إليه من الكتب ، لأشير له إلى المواضع التى يعنيه أن يقرأ منها ، وأدع ما لا جدوى عليه من قراءته ضناً بوقته . وكنت أنا أكثر رجحاً بذلك !

إنى لأحس حين أذكره الساعة كأننى لست وحدى ، وكأن روحاً حبية تطيف بى وترف حولى بمخاضين من نور ، وكأن صوتاً ندياً رفيع الغبرات يتحدث إلى من وراء الغيب حديثاً أعرف جرسه ونغمته ؛ ولكنى لا أرى ، ولكنى لا أسمع ، ولكنى هنا وحدى ، تنغشانى الذكرى فتخيل إلى ما ليس فى دنيائى . . . لقد كان هنا صوت يتجاوب صدها بين أقطار العربية ، لقد كان هنا إنسان يملأ فراغاً من الزمان ، لقد كان هنا قلم يصر صرياً فيه رنات المثانى وفيه أنات الوجع ، وفيه همسات الأمانى وفيه صرخات الفزع ، فيه نشيج البكاء وفيه موسيقى الفرج . . . خفت الصوت ، ومات الانسان ، وتحطم القلم ؛ ولكن قلب الشاعر ما زال حياً ينبض ، لأن قلب الشاعر أقوى من الفناء !

وجاءنى نعى الراحل بعد ظهر الاثنين ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ فذشيتنى غشية من الهم والألم سلبتني الفكر والارادة وضبط النفس، فلم أكأأصدق فيما بينى وبين نفسى أن (صادق الراحل) الذى ينعم الناعى الساعة ، هو الرجل الذى أعرف ويعرف الناس ؛ ودار رأسى دورة جمعت لى الماضى كله بزمانه ومكانه فى لحظة فكر ، وتتابعت الصور أمام عيني تنقل إلى خيال هذا الماضى بألوانه وأشكاله ومجاسه وسمره وأحاديثه ،

من أول يوم لقيت فيه الرافى إلى آخر يوم جلست إليه ...
وعدت إلى النى أقرؤه وفى النفس حسرة والتىاع ، فما زادتنى قراءته شيئاً
من العلم إلا أن مصطفى صادق الرافى قد مات !
حينئذ أحسست كأن شيئاً ينصب انصباباً فى نفسى ، وأن صوتاً من الغيب
يتناولنى من جهاتى الأربع يهتف بى ، وأن حياة من وراء الحياة تكتنفنى الساعة
لتملى على شيئاً أو تتحدث إلى بشىء ، وكأن عينين تطلان على من وراء هذا العالم
المنظور لتأمرانى أمراً وتلهمانى الفكر والبيان ، هما عينا الرجل الذى أحبيته حباً
فوق الحب ، وأخلصت له وأخلص لى إخلاصاً ليس منه إخلاص الناس ، ثم نزع
الشیطان بينى وبينه ففارقته وفى نفسى إليه نزوع وفى نفسه إلى ، فلم ألقه من بعد
إلا رسماً فى ورقة مجللة بالسواد ... !
وعرفت منذ الساعة أى واجب على لهذا الراحل العزيز .

لقد عاش الرافى فى هذه الأمة وكأنه ليس منها ، فما أدت له فى حياته واجباً ،
ولا اعترفت له بحق ، ولا أقامت معه على رأى ؛ وكأنما اجتمع له هو وحده تراث
الأجيال من هذه الأمة العربية المسلمة ، فعاش ما عاش ينهبها إلى حقائق وجودها
ومقومات قوميتها ، على حين كانت تعيش فى ضلال التقليد وأوهام التجديد .
ورضى هو مقامه منها غريباً معزلاً عن الناس ، لا يعرفه أحد إلا من خلال ما يؤلف
من الكتب وينشر فى الصحف ، أو من خلال ما يكتب عنه خصومه الأ كثرون ؛
وهو ماض على سنته سائر على نهجه لا يبالي أن يكون منزله بين الناس فى موضع
الرضا أو موضع السخط والغضب ، ولا ينظر لغير الهدف الذى جعله لنفسه منذ
يومه الأول ، وهو أن يكون من هذه الأمة لسانها العربى فى هذه العجمة
المستعربة ، وأن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه ، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة
والضلال كما كان — رحمه الله — يرى فى ذلك إلا أن الله قد وضعه فى هذا الموضع
ليكون عليه وحده حياطة الدين والعريية ، لا ينال منهما نائل إلا انبرى له ،

ولا يتقحم عليهما متقحم إلا وقف في وجهه ؛ كأن ذلك (فرض عين) عليه وهو على المسلمين (فرض كفاية) ؛ وأحسبه قال لى مرة وقد كُتب إليه صديق يلفته إلى مقال نشرته صحيفة من الصحف لكاتب من الكتاب تناول فيه آية من القرآن بسوء التأويل : « من تراه يا بنى يقوم لهذا الأمر إن سكت الرافعى ؟ » وما كان هذا من اعتداده بنفسه ، ولكنه كان مذهبه وإليه غايته ، وكأن القدرة التى هياته وأنشأته بأسبابها لهذا الزمان ، قد فرضت عليه وحده سداد هذا الثغر ؛ وكان إلى ذلك لا ينفك باحثاً مدققاً فى بطون الكتب حيناً وفى أعماق نفسه المؤمنة حيناً آخر ، ليستجلى غامضة من غوامض هذا الدين ، أو يكشف عن سر من أسرارهِ فينشر منه على الناس ؛ وأحسبه بذلك قد أجد على الاسلام معانى لم تكن تخطر على قلب واحد من علماء السلف ، وأراه بذلك كان يمثل (تطور الفكرة الاسلامية) فى هذا العصر . فاذا كانت الأمة العربية المسلمة قد فقدت الرافعى ؛ فما فقدت فيه الكاتب ، ولا الشاعر ، ولا الأديب ؛ ولكنها فقدت الرجل الذى كان ولن يكون لها مثله فى الدفاع عن دينها ولغتها ، وفى النظر إلى أعماق هذا الدين ، يزاوج بينه وبين حقائق العلم وحقائق النفس المستجدة فى هذا العصر ، ولقد يكون فى العربية كتاب وشعراء وأدباء لهم الصيت النابه ، والذكر الدائع ، والصوت المسموع ؛ ولكن أين منهم الرجل الذى يقوم لما كان يقوم له الرافعى : لا يترخص فى دينه ، ولا يتهاون فى لغته ، ولا يتسامح لقائل أن يقول فى هذا الدين أو فى هذه اللغة حتى يرده من هدف إلى هدف أو يفرض عليه الصمت ...

لقد حاول كثير من مؤرخى الأدب أن يتحدثوا عن الرافعى فى حياته ؛ فقالوا شاعر ، وقالوا كاتب ، وقالوا أديب ، وقالوا عالم ، وقالوا مؤرخ . ولكنهم لم يقولوا الكلمة التى كان ينبغى أن يقال : لقد كان شاعراً ، وكاتباً ، وأديباً ، وعالمًا ، ومؤرخاً ؛ ولكنه بكل أولئك ، وبغير أولئك ، كان شيئاً غير الشاعر والكاتب والأديب ، وغير العالم والمؤرخ ؛ كان هبة الله إلى الأمة العربية المسلمة فى هذا الزمان ، لينبها إلى حقائق وجودها ، وليردها إلى مقوماتها ؛ وليشخص لها

شخصيتها التي تعيش باسمها ولا تعيش فيها ، والتي تعجز بها ولا تعمل لها
 رحمه الله ! لقد عاش في خدمة العربية سبعاً وثلاثين سنة من عمره القصير ،
 وصل بها جازرها المائل بماضيها البعيد ؛ فهي على حساب الزمن سبع وثلاثون ،
 ولكنها على الحقيقة عصر بتمامه من عصور الأدب ، وفصل بعنوانه في مجد الاسلام ؛
 لقد عاش غريباً ومات غريباً ، فكأنما كان رجلاً من التاريخ بعث في غير
 زمانه ، ليكون تاريخاً حياً ينطق بالعبرة ويجمع تجارب الأجيال ، يذكر الأمة
 العربية الاسلامية بماضيها المجيد ؛ ثم عاد إلى التاريخ بعد ما بلغ رسالته .
 لقد خفت الصوت ، ولكنه خلف صداً في أذن كل عربي وفي قلب كل مسلم ،
 يدعو به إلى الجهاد لمجد العرب ولعز الاسلام !

وبعد ، فإذا يعرف الناس عن الرافعي وماذا أعرف ؟ هل يعرف الناس إلا ديوان
 الرافعي ، وكتب الرافعي ، ومقالات الرافعي ؟ ولكن الرافعي الذي يجب أن يعرفه
 أدباء العربية ليس هناك . فإذا يكتب عنه الكتاتيون غداً إن أرادوا أن يكتبوا هذا
 الفصل الذي تم تأليفه في تاريخ العربية ؟

لقد عشت مع الرافعي عمراً من عمري في كتبه ومقالاته ، فما عرفت العرفان
 الحق ؛ وعشت معه بعد ذلك في مجلسه وفي خاصته ، وخطته بنفسى وخططي
 بنفسه ؛ فما أبعد الفرق بين الصورتين اللتين كانتا له في نفسى من قبل ومن بعد ؟
 أفترانى بهذا أستطيع أن أقول عن الرافعي شيئاً تؤدي به بعض ما على من الدين
 للعربية وللفقيد العزيز ؟

إننى لأحس عبثاً ثقيلاً على عاتقى ، لا طاقة لى بأن أحله وليس على أحد غيرى
 أن يقوم به . ولقد كتبت منذ عامين شيئاً عن الرافعي يعرفه إلى قراء « الرسالة » ،
 فما أحسبني لقيت في ذلك من الجهد إلا بمقدار ما استحضرت الفكر وتناولت القلم ؛
 على أن الرافعي كان يومئذ حياً ، وكنت أحذر أن يفضب أو ينالني منه عتب ؛
 فكيف بي اليوم والرافعي بعيد في العالم الثاني ، والكلمة للتاريخ ، ووسائل

العلم منى قريبة ؛ ورسائل الأدباء ترى تستنجزنى الوعد وتقتضينى الحق الذى على للأدب والعربية ، وصوت الفقيد العزيز يهتف بى حينما توجهت : « إن لى عليك حقاً ، وإن للأدب عليك ... ! » .

ولكنى ما أ كاد أمسك القلم حتى يكتنبنى الشعور بالمعجز ، فأ كاد أوقن أنه لا أحد يستطيع أن يكتب عن الرافعى إلا الرافعى نفسه ، ولكن الرافعى قد مات . أيها الحبيب العزيز الذى ما أزال من كثرة ذكراه كأنى منه على ميعاد ... معذرة إليك !

وهأنذا أحاول أن أكتب عن الرافعى ؛ فلا ينتظر أحد منى — فى هذا الكتاب — أن أتكلم عن الرافعى الشاعر ، أو الرافعى الكاتب ، أو الرافعى الأديب ، أو الرافعى الفيلسوف ؛ فما يتسع له يومى ، وما يرضينى عن نفسى ولا يقنعنى بالوفاء أن أكتب عن هذه الحيات الكثيرة التى اجتمعت فى حياة إنسان ؛ ولكنى سأكتب — هنا — عن الرافعى الرجل الذى عاشته زمناً ، ونعمت بصحبته ، وخلطته بنفسى ، وتحدث قلبه إلى قلبى ، وتكشفت روحه وروحي ؛ سأكتب عن الرافعى الذى عاش على هذه الأرض سبعاً وخمسين سنة ثم طواه الموت : سأحاول أن أجمع شتات حياة تفرقت أخباراً وأقاصيص ونوادر على لسان معاصريه ، أو غابت سرّاً فى صدور أهله وخاصته ؛ أما الرافعى الشاعر الكاتب الأديب الفيلسوف ؛ فللحديث عنه كتاب غير هذا الكتاب ، وسيجد الباحثون مما أقول عنه مادة لما يقولون فيه ، ولعلنى أن أوفق فى البلوغ إلى ما قصدت . وإننى لأتهم نفسى من كثرة ما أحب الرافعى أن أتخيف الأدب ، لو بدا لى فى هذا التاريخ أن أقول : هذا رأيى . ولكنى سأقول : هذا ما رأيته . فمن كانت له عين بصيرة تنفذ إلى ما وراء المرئيات ، وتربط الأسباب بالمسيبات ، فسيلغ جهده ويرى رأيه .

ولقد كان الرافعى منذ قريب إنساناً حياً بمواطنه وأمياله وحبه وبغضه وشهواته النفسية ، ولكنه اليوم فصل من تاريخ العربية بألوانه وفنونه ؛ فلا على اليوم إن قلت كل ما أعرف عنه خيراً وشرّاً ؛ فانما أكتب للتاريخ ، والتاريخ لا يحاى

ولا يحتسب ، وستمربى فى تاريخ الرافعى حوادث وأسماء سأصفها وأعرف عنها بقدر ما ، كما سمعتها أو عرفت عنها ؛ فأىما كاتب أو أديب أو رجل أو امرأة أو ذى شأن أحس فىما أكتب شيئاً ناله بما يوجب المدح أو المذمة ، فلا يشكر ولا يمتب ؛ فان التاريخ بعد أن يقع لا يمكن محوه ... وما فات من تاريخ الانسان فهو جزء انفصل من حياة صاحبه ، وإنما له ما هو آت ، وما أحب أن يقول لى أحد صدقت أو كذبت ؛ فما هذا الذى أكتب رأياً أراه ، ولكنه رؤية رأيها أو رواية رويتها فأثبتها مسندة إلى راويها وعليه تبعها .

إن التاريخ الأدبى للرافعى يبدأ من سنة ١٩٠٠ ، وتاريخ ميلاده قبل ذلك بعشرين سنة ؛ وأنا ما بدأت صلتى بالرافعى إلا سنة ١٩٣٢ ؛ فما كان من هذا التاريخ فسأرويه من غيب صدرى أو مذكراتى وعلى تبعته ، وما كان من قبل فقد سمعت به من أهله وأصدقائه الأدين وخطائه منذ صباه ، أو كان مما قصه على أو عرفت عنه من أوراقه الخاصة ورسائله إلى صحبه ورسائل صحبه إليه . فهذه مصادر علمى أقدمها بين يدى هذا الحديث ، ليعرف قارئه أين مكانه من الصدق ومنزله من الحق . على أن الدائرة خثون ، وما يمر على فكر الانسان من مختلف الحوادث وصروف الأيام ينسيه أو يلهيه أو يخلط فى معلوماته شيئاً بشىء ؛ فمن كان يعرف شيئاً من تاريخ الرافعى ورأى أنى تصرف فيه بنقص أو زيادة أو تغيير أو تبديل ، فليجعلنى عنده بمنزلة من حسن الظن ؛ والله أسأل أن يجنبنى الخطأ ، وأن يوفقنى فيما أنا بسبيله .





صورته

كان الرافي رجلاً كبعض من تعرف من الناس : له ما لهم مما يتميز به الانسان ؛ فلم يكن الناظر حين ينظر إليه ليلمح له امتيازاً في الخلق يدل على نفسه أو عقله أو عبقريته

بل لقد يشك الناظر إلى وجهه في أن يكون وراء هذه السحنة وهذه الملامح نبوغ أو عبقرية أو فكر سام !

وجهه ممسوح مستطيل ، أقرب إلى بياض أهل الشام منه إلى سمرة أهل مصر ؛ في وجنتيه احمرار دائم قد ترى مثله في شفثيه ؛ وله عينان كأنما ينظر بهما إلى نفسه لا إلى الناس ، فترى لهما بريقاً في عينيك ولا تسمع لهما همساً في نفسك ؛ وجهه عريضة تبدأ فوق الحاجبين غائرة نوعاً ما ، ثم تبرز مقوسة قليلاً إذا اقتربت من فروة الرأس ؛ وأذنان فيهما كبر ما ولكنهما لا تؤديان عملاً ولا تنقلان إليه معنى ، ومن ذلك كان قليل التلفت في مجلسه ؛ وأنف طويل مستدق من أعلاه منتفخ من أسفله . وكأنما صنعت له شفثاه ابتسامته الدائمة ، فلا ترى فيه مغلقاً أبداً إلا رأيت أنه كأنما يحاول أن يحبس ابتسامته هاربة ، وتحمل شفثه شارباً كثيفاً أشمط ، تحيفته الأيام من أطرافه ، فتصاغر طرفاه بعد استعلاء وكبر ...

وصوت عال رفيع النبرات ليس له لون ولا معنى ، تسمعه على أى أحواله كما تسمع صراخ الطفل ، له عذوبته وتطريبه ، ونغمة الحزن ونغمة الفرح عنده سواء !

وقامة رياضية متناسبة بريئة من الفضول ، لا يشينها طول ولا قصر ، ولا سمن ولا نحافة

وكان أشمط خفيف شعر الرأس حليق اللحية دقيق الحاجبين، عريض المنكبين غليظ العنق قوى الكف والساعد؛ مما كان يعالج من تمرينات الرياضة تلقاه في الطريق في يده عصا لا يعتمد عليها ولكنه يهزها في يمينه إلى أمام ووراء، ويتأبط بيسراه عديدا من الصحف والمجلات والكتب، ماشيا على حيد الطريق لا يعيل، واسع الخطو لا يتمهل، ناظراً إلى الأمام لا يتلفت إلا حين يهيم باجتياز الطريق

تلك صفاته الجسمية التي واصلها التراب كما لا تزال في ذاكرتي، أما صورته العقلية، أما حياته، أما أيامه على هذه الأرض منذ كان إلى أن زال؛ فذلك ما سأجلوه في الفصول التالية إن شاء الله

